جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة – تكريت – كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم العلوم التربوية والنفسية

(خصائص الفلسفة الإسلامية)

المرحلة الرابعة

في

قسم العلوم التربوية والنفسية

أستاذ المادة
الأستاذ المساعد الدكتور
معد صالح فياض

خصائص الفلسفة الإسلامية

عالجت الفلسفة الإسلامية المشاكل التقليدية الكبرى، وهي مشكلة الإله، والعالم، والإنسان، وفصّلت القول فيها، متأثرة أولاً ببيئتها والظروف المحيطة بها، ومستعينة ثانياً بما وصل إليها من دراسات فلسفية سابقة، شرقية كانت أو غربية. وانتهت إلى طائفة من الآراء التي إن اختلفت في بعض التفاصيل باختلاف رجالها، فإنها تلتقي في مذهب شامل ونظريات مشتركة . وتمتاز بوجه عام بالمميزات الآتية:

١- فلسفة دينيـة وروحية:

تقوم الفلسفة الإسلامية على أساس من الدين، وتعول على الروح تعويلاً كبيراً. هي فلسفة دينية لأنها نشأت في قلب الإسلام، وتربى رجالها على تعاليمها، واشربوا بروحه، وعاشوا في جوّه. وهي إنما جاءت امتداداً لأبحاث دينية ودراسات كلامية سابقة. ومن الخطأ أن يظن أن الفكر الفلسفي الإسلامي لم يولد إلا في القرن الثالث للهجرة على أيدي الكندي فيلسوف العرب (٨٦٥)، بل سبقه في مدرسة المعتزلة مكفرون آخرون ذوو مذاهب فلسفية مكتملة، أمثال النظام (٨٤٥) وأبي الهذيل العلاّف(٨٤٩) ، والدراسات الكلامية في صميمها باب من أبواب الفلسفة، والكندي نفسه يمكن أن يعدّ بين جامعة المعتزلة، وكثراً ما يحاول فلاسفة الإسلام بوجه عام- شأن المفكرين الإسلاميين الآخرين- أن يدعموا آراءهم بأسانيد من الكتاب والسنّة.

والفلسفة الإسلامية دينية في موضوعاتها، تبدأ بالواحد ، وتحلل فكرة الإلوهية تحليلاً شاملاً دقيقاً لم تسبق إليه. وكأنما كانت تباري المدارس الكلامية المعاصرة من معتزلة وأشاعرة، فتتدارك نقصها، ومع في تصوير البارئ جل شأنه تصويراً أساسه التجريد والتنزيه، والوحدة المطلقة والكمال التام، وعن الواحد صدر كل شيء، فهو المبدع والخالق، أبدع من لا شيء، وخلف العالم في الأزل، ونظمه وسيرّه، فالعالم معلول له في وجوده وبقائه، أبدعه بمحض فضله، ووعاه بعنايته، وأخضعه لقوانين ثابتة ونظم محكمة. وعلى هذا فالطبيعة والكسمولوجيا مرتبطتان في الفلسفة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالمتافزيقا. ولا يخرج علم النفس والخلاق عن ذلك كثيراً، فالنفوس البشرية، مهما اختلف فلاسفة الإسلام في حقيقتها وخلودها، يسلمون جميعاً بأن فيها شيئاً نورانياً وإلهياً.

فهي لا تستطيع الكشف عن الحقائق الكلية إلا بمدد ساوي وفيض علوي، وبعبارة أخرى إلا بمعونة العقل الفعَّال إن شئنا أن نستعمل لغة الفارابي (٩٥٠) وابن سينا(١٠٣٧). وكمالها في أن تسمو عن طريق النظر والتأمل إلى مرتبة الاتصال بالعالم العلوي، ويسلم فلاسفة الإسلام جميعاً، بين مشارقه ومغاربه، بهذا الاتصال، حتى ابن رشد (١١٩٨) الذي يبدو عليه أنه يربط النفس بالجسم برابط أوثق على نحو ما صنع أرسطو. وللفضائل قيم ذاتية، والحلال بين، والحرام بين، وفي وسع العقل البشري أن يكشف عن ذلك، ولكن الوحي يدعم العقل ويؤيده.

وما من فلسفة دينية إلا وللروح فيها نصيب ملحوظ، والأديان تخاطب عادة قبل أن تخاطب العقول. ويرى فلاسفة الإسلام أن الروح مصدر الحياة والحركة والإدراك. وسيلة البهجة والسعادة. ففي الكائنات الحية نفوس تغذيها وتحركها ، وتُعد بعضها بالعلم والمعرفة، فهناك نفوس نباتية، وأخرى حيوانية، وثالثة إنسانية، ولكل فلك من الأفلاك السماوية نفس خاصة به. مملوءة شوقاً ورغبةً في الكمال ، فتتحرك وتحرك فلكها، ورئيس المدنية الفاضلة أو الجمهورية المثلى بشر سمت نفسه وتخلصت من شوائب البدن، وأضحى نبيًّا فيلسوفاً يسوس الناس بالحكمة، ويدير شؤونهم بالعدل والقسطاس فعالم السماء وعالم الأرض محكومان عند فلاسفة الإسلام بالنفوس الفاضلة ونزعتهم الروحية أوضح من أن نطيل الحديث فيها.

بهذا الطابع الديني والروحي استطاعت الفلسفة الإسلامية أن تقترب من الفلسفة المدرسية، بل وأن تتلاقى مع بعض الفلسفات الحديثة والمعاصرة. وما كان لرجال الدين في القرون الوسطى أن ينكروا فلسفة تقول بالخلق والإبداع، وتبرهن على خلود الروح، وتؤمن بالجزاء والمسؤولية والبعث والسعادة الأخروية. ولقد وصل الأمر بروجر بيكون (١٢٩٤) أنه كان معجباً ((بنظرية الخلافة والإمامة الإسلامية)) ، على نحو ما شرحها ابن سينا في كتاب الشفاء، إلى حد أنه شاء أن يطلق على البابا لقب ((خليفة الله في أرضه)).

٢- فلسفة عقلية:

وبرغم هذا الطابع الديني والروحي تعتدّ الفلسفة الإسلامية، بالعقل اعتداداً كبيراً، وتعوّل عليه التعويل كله في تفسير مشكلة الإلوهية، والكون، والإنسان . فواجب الوجود عقل محض،

بعقل ذاته بذاته، فهو عاقل ومعقول في آن واحد. وعنه صدر العقل الأول ، فهو أول شيء خلقه الله وفي سلسلة متلاحقة صدرت العقول الأخرى التي تدير شؤون السماء، فيما عدا العقل العاشر، أو العقل الفعّال، الذي يرعى شؤون الأرض. وليس بغريب أن تكون شؤون السماء أنظم وأحكم، لأن العقول المفارقة والنفوس الفلكية هي التي تشرف عليها. ولعالم السموات قداسة عرفها اليونان من قديم، وأيدتها الأديان السماوية. وعن العقل العاشر صدر عالم الكمون والفساد، فمنه استمدت العناصر الأولية، التي نشأ عنها المعدن ، والنبات ، والحيوان ، ثم الإنسان الذي هو أشرف الكائنات.

والعقل البشري قوة من قوى النفس ويسمى النفس الناطقة. وهو ضربان : عملي يسوس البدن، وينظم السلوك، ونظرى يختص بالإدراك والمعرفة. فهو الذي يتقبل المدركات الحسية، ويستخلص منها المعاني الكلية بعون من العقل الفعّال، الذي هو من نفوسنا بمثابة الشمس من أبصارنا، وفي وسع العقل البشري أن يسمو إلى مرتبة يستطيع أن يتصل فيها مباشرة بالعقول المفارقة، فتتكشف له المعقولات دفعة. ويخلص إلى عالم القدس واللذّة العليا، وهذه هي السعادة التي ليست وراءها سعادة.

بالعقل نعلّل ونبرهن، وبه نكتشف الحقائق العلمية فهو باب هام من أبواب المعرفة، وليست المعارف كلها منزلة، بل منها ما يستنبطه العقل ويستخلصه من التجربة. وفي منطق أرسطو ما يرسم طرائق الحدّ والبرهان، وقيمة البرهان فيما يعتمد عليه من مقدمات يقينية يقرها العقل ويسلم بها جميع الناس. وكم أعجب فلاسفة الإسلام بهذا المنطق وعنوا بشرحه وتلخيصه، وسموا صاحبه ((المعلم الأول)) لأنه بحق ((المنطقي الأول)). أفادوا من منطقته كثيراً في درسهم وبحثهم وطبقوه في جدلهم ومناقشاتهم ، واستعانوا به في إثبات كثير من القضايا الدينية على نحو ما صنع المعتزلة والأشاعرة. وقد عرف من الأشعري (٩٣٥)، زعيم أهل السنة، أنه كثيراً ما لجأ إلى القياس الأرسطي في برهنته الدينية.

والواقع أن فلاسفة الإسلام بنزعتهم العقلية يلتقون بوجه خاص مع المعتزلة الذين سبقوهم إلى تعظيم العقل والنزول عند حكمه، وقد سموا ((مفكري الإسلام الأحرار)) . حكموا العقل في أمور كثيرة، فاتفقوا على أن الإنسان قادر بعقله على التمييز بين حسن الأشياء وقبحها، وعلى التفرقة بين الخير والشر قبل ورود الشرع، وقالوا بالصلاح والأصلح ، فلا يخلو فعل من أفعاله

تعالى من الخير والصلاح. وقرروا حرية الإرادة وقدرة العبد على خلق أفعاله، كي يكون للثواب والعقاب معنى. وتأولوا النصوص الدينية التي لا تتمشى مع العقل، ولا يقرها المنطق. وأتوا بحجج عقلية بارعة في دفاعهم عن الدين وردهم على خصومه، ولهم في ذلك مجالس ومناظرات كانت مضرب المثل. وبالجملة يعد المعتزلة في مقدمة العقليين في الإسلام. وهم أقرب الفرق الإسلامية إلى الفلاسفة. ويقترب منهم في هذا أيضاً جماعة الإسماعيلية وبعض المتصوفين الفلاسفة ، أمثال السهروردي المقتول(١١٩١)، وابن عربي(١٢٤٠) ، وابن سبعين(١٢٧٠). واستطاع هؤلاء جميعاً أن يبرزوا التيار العقلي في الإسلام، وان يدعموه ويؤيدوه، ووجدوا في الكتاب والسنة ما يتمشى معه ويغذيه.

وقد انتقل هذا التيار إلى الفلسفة المسيحية وكان فلاسفة الإسلام بوجه خاص حملة رايته وأثاروا في القرن الثالث عشر حركة فكرية قوية، فأيدهم بعض المدرسين وعارضهم آخرين. ونمت الدراسات العقلية نمواً كبيراً، وكانت الدراسات الفلسفية في القرون السابقة أقوى وأغلب . ويوم ان يتقابل العقل والنقل تقابلاً واضحاً في بيئة دينية، تثار الخصومة بينهما، وتمس الحاجة إلى تغليب احدهما على الآخر أو التوفيق بينهما. ويمتاز القرن الثالث عشر بكثرة ما صدر فيه من قرارات كنسية تحرم كتباً فلسفية أو دراسات عقلية بعينها، وإن لم تمنع عشّاق هذه الدراسات من التعلّق بها. ولا نزاع في أن ازدياد سلطان العقل يعدو على نفوذ الكنيسة ، ويفسح السبيل لبحث حقوقها وواجباتها، وأمر آخر يمكن لاحظته ، وهو أن مشكلة التوفيق بين الفلسفة والدين لم تثر من قبل في الفلسفة المسيحية مثلما أثيرت في القرن الثالث عشر على أثر اتصال اللاتينيين بالفلسفة العربية.

٣- فلسفة توفيقيـة:

توفق بين الفلاسفة بعضهم وبعض، وقد عرف العرب شيئاً من الفلسفات الشرقية القديمة، كما عرفوا شيئاً عن السابقين لسقراط، والسفسطائيين ، والسقراطيين، وأنصاف السقراطيين، والرواقيين والأبيقوريين، وجماعة الشكاك ، ورجال مدرسة الإسكندرية. ولكنهم عنوا خاصة بأفلاطون وأرسطو، فترجموا للأول أهم محاوراته ، وهي : الجمهورية ، والنواميس ، وطيماوس، والسوفسطائي، والسياسي، وفيدون، واحتجاج سقراط. وترجموا للثاني مصنفات الكهولة كلها تقريباً، من منطقية وطبيعية وميتافزقية ، وأخلاقية ، وكانت الخطابة والشعر، وهما كتابان فنيان

، يعدّان عندهم بين الكتب المنطقية. ولم يفتهم إلا كتبه السياسية، وقد احلوا محلها جمهورية أفلاطون، وبعض كتبه الأخلاقية . وأضافوا إل هذا مؤلفات منحولة ليست من عمل أرسطو، مثل السماء والعالم ، وكتاب الربوبية، ولم يقنعوا بترجمة الكتب الأرسطية وحدها، بل حرصوا ما استطاعوا على أن يترجموا معها شروحاً ، وكانت لهذه الشروح شأن كبير في نظرهم، وعرفوا من الشرائح تاوفرسطس(٢٨٧ق.م) خليفة أرسطو الأول، والإسكندر الأفروديسي(٢١١) الذي كان يسميه ابن سينا ((فاضل المتأخرين)). وعرفوا من شراح مدرسة الإسكندرية عدداً غير قليل، أمثال : أمونيوس سكاس(أوائل القرن الخامس) ، ويحيى النحوي (٦٤٣). وربما كان هؤلاء أعظم أثراً من المشّائين الأول، لأنهم كانوا إلى العرب أقرب، وفي نظريتهم الدينية ما يلائم بين فلسفتهم والفكر الإسلامي ، وهم على كل حال مصدر هام من مصادر الأفلاطونية والافلوطينية في العالم العربي .

فعرف العرب إذن أفلاطون وأرسطو معرفة مباشرة، عن طريق مؤلفاتهما، إلى جانب ما نقله عنهما المؤرخون، أمثال فلوطوخس(١٢٥) وجالينوس(٢٠٠)، وما نقله عنهما حنين بن إسحق (٨٧٧) في كتابه نوادر الفلاسفة والحكماء. وقد أثر تأثيراً كبيراً في كثير من المدارس الإسلامية وحولهما بوجه خاص دار التوفيق بين الفلاسفة. وللفارابي في هذا موقف واضح، فهو يؤمن بوحدة الفلسفة، وأن كبار الفلاسفة يجب أن يتفقوا فيما بينهم، ما دامت الحقيقة هدفهم جميعً. ولا شك في أن أفلاطون وأرسطو هما زعيما الفلسفة، وضعا أصولها، وفضلا القول فيها، وبلغا بها الغاية، ولا سبيل لأن يتصور خلاف بينهما.

ولا يمكن أن ننتظر نجاح محاولة أساها خاطئ، فالأفلاطونية شيء والأرسطية شيء آخر. ولكن لهذه المحاولة شأناً كبيراً في تاريخ الفلسفة الإسلامية، فهي نقطة بدء سار عليها الفلاسفة اللاحقون. ونلاحظ أن ابن سينا لم يعن بالتفرقة بين أفلاطون وأرسطو، وفي فلسفته جانب أفلاطوني واضح.. ونلمح لدى ابن باجّة(١١٣٨) وابن طفيل(١١٨٥) ، اتجاهات أفلاطونية وأفلوطينية قوية، وإذا كان ابن رشد قد اخذ على عاتقه العودة إلى أرسطو وتخليص أرسطية مما لحق بها من عناصر أجنبية، فإنه لمن سليم هو نفسه من هذه العناصر، وبدت فلسفته في جملتها استمراراً للفلسفة التي قال بها الفارابي وابن سينا. وعلى هذا تربط الفلسفة